سورة الدخان

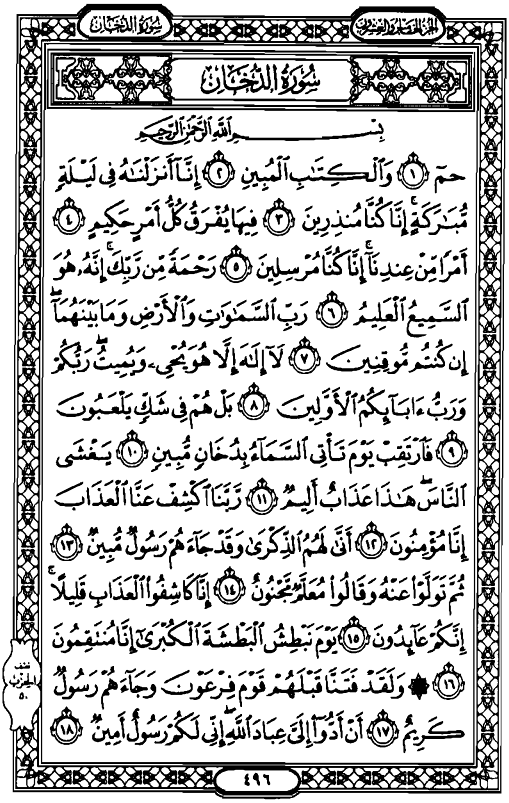
الجزء الخامس والعشرون — سورة الدخان

سُورَةُ الدُّخَانِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ (١) وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (٢) إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ
مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ (٤)
أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ (٥) رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (٦) رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ
إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ
وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٨) بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ
(٩) فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ (١٠) يَغۡشَى
ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ (١١) رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ
إِنَّا مُؤۡمِنُونَ (١٢) أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ (١٣)
ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ
إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ (١٥) يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ
(١٦) ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ
كَرِيمٌ (١٧) أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ (١٨)

الحزب ٥٠

٤٩٦

معانى الكلمات :

ليلة مباركة : ليلة القدر .

يفرق : يفصل ويبين .

أمر حكيم : أمر محكم .

فارتقب : فانتظر .

يغشى الناس : يشملهم ويحيط بهم .

معلم : يعلمه بشر .

فتنا : ابتلينا .

أدوا : سلموا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم فضل ليلة القدر فى ميزان الإسلام .

٢ ـ أن نتعرف على حكمة إرسال الرسل إلى الناس .

٣ ـ أن نعلم ما قابلت به قريش دعوة الإسلام من جحود وكفران .

المحتوى التربوى :

تبدأ السورة بالحديث عن القرآن وتنزيله فى ليلة مباركة فيها يفرق كل أمر حكيم ، رحمة من الله بالعباد ، وإنذاراً لهم وتحذيراً ، ثم تعريف للناس بربهم : رب السموات والأرض وما بينهما ، وإثبات لوحدانيته وهو المحيى المميت رب الأولين والآخرين .

تبدأ السورة بالحرفين (حا . ميم) على سبيل القسم بهما والكتاب المبين المؤلف من جنسهما ، وقد تكرر الحديث عن الأحرف المقطعة فى أوائل السور ؛ فأما عن القسم بهذه الأحرف كالقسم بالكتاب ، فإن كل حرف معجزة حقيقية أو آية من آيات الله فى تركيب الإنسان ، وإقداره على النطق ، وترتيب مخارج حروفه ، والرمز بين اسم الحرف وصوته ، ومقدرة الإنسان على تحصيل

المعرفة من ورائه ، وكلها حقائق عظيمة تكبر فى القلب كلما تدبرها مجرداً من وقع الألفة والعادة الذى يذهب بكل جديد .

فأما المقسم عليه فهو تنزيل هذا الكتاب فى ليلة مباركة ، والليلة المباركة التى أنزل فيها القرآن ـ والله أعلم ـ الليلة التى بدأ فيها نزوله ، وهى إحدى ليالى رمضان ، والقرآن لم ينزل كله تلك الليلة ، كما أنه لم ينزل كله فى رمضان ، ولكنه بدأ يتصل بهذه الأرض ، وإنها لمباركة حقا تلك الليلة التى يفتح فيها ذلك الفتح على البشرية ، والتى يبدأ فيها استقرار هذا المنهج الإلهى فى حياة البشر منهجا واضحا كاملا صالحا لإنشاء حياة إنسانية نموذجية فى كل بيئة وفى كل زمان .

أنزل الله هذا القرآن فى هذه الليلة المباركة ، أولا للإنذار والتحذير ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ فالله يعلم غفلة هذا الإنسان ونسيانه وحاجته إلى الإنذار والتنبيه ، وهذه الليلة المباركة بنزول هذا القرآن كانت فيصلا وفارقا بهذا التنزيل ، وقد فرق فيها بهذا القرآن فى كل أمر ، وفصل فيها كل شأن ، وتميز الحق الخالد والباطل الزاهق ، ووضعت الحدود ، وأقيمت المعالم لرحلة البشرية كلها بعد تلك الليلة إلى يوم الدين ، فلم يبق هناك أصل من الأصول التى تقوم عليها الحياة غير واضح ولا مرسوم فى دنيا الناس ، وكان ذلك كله بإرادة الله وأمره ، ومشيئته فى إرسال الرسل للفصل والتبيين ، وكان ذلك كله رحمة من الله بالبشر إلى يوم الدين وما تتجلى رحمة الله بالبشر كما تتجلى فى تنزيل هذا القرآن بهذا اليسر ، الذى يجعله سريع اللصوق بالقلب ، ويجعل الاستجابة له تتم كما تتم دورة الدم فى العروق ، ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ ونزل بها هذا القرآن فى الليلة المباركة ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ويسمع ويعلم ، وينزل ما ينزل للناس على علم وعلى معرفة بما يقولون ، وما يعملون ، وما يصلح لهم ويصلحون به من السنن والشرائع والتوجيه السليم .

والذى أنزل القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما إن كنتم متحققين باليقين ، فإرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب ، هذا الرب هو السميع العليم ، الذى أنتم مقرون به ، ومعترفون بأنه رب السموات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم على علم وإيقان ، فآمنوا أنه أرسل رسلا وأنزل كتبا ، وهو الإله الواحد الذى يملك الموت والحياة ، وهو رب الأولين والآخرين .

وعندما يبلغ الموقف هذا الحد من الاستثارة والاستجاشة يضرب السياق عنه ، ويلتفت بالحديث إلى حكاية حالهم تجاهه ، وهو حال مناقض لما ينبغى أن يكونوا عليه تجاه حقيقة الموقف الجاد الذى لا مجال للعب فيه ، يقول : إنهم يلعبون إزاء ذلك الجد ، ومع هذا كله يشكون ، والملاحظ أنه لم يحدد مضمون الشك مما يشير إلى أنه شك فى كل القضايا الإيمانية : فى الله وصفاته وأفعاله وفى القرآن والرسول ، وأمام هذا الشك بعد هذا البيان لم يبق من فائدة ترجى من هؤلاء

الشاكين ، فقال لهم متوعدا : انتظر فيهم العذاب فإنه قد قرب وآن أوانه ، يوم تأتى السماء بدخان ظاهر حاله لا يشك أحد فى أنه دخان ، يشمل الناس ويلبسهم ، فيقولون : هذا عذاب مؤلم .

ثم يدعون الله عز وجل بأنه سنؤمن إن كشفت عنا العذاب ، وكيف يتذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوا به من الإيمان عند كشف العذاب ، وأنى لهم الادكار وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل فى وجوب الادكار ، من كشف الدخان ، وهو ما ظهر على رسول الله ﷺ من الآيات والبينات من الكتاب المعجز وغيره ، فلم يذكروا وتولوا عنه وبهتوه بأنه قد علمه غيره من البشر ونسبوه إلى الجنون ، وإنا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد سببه ووصوله إليكم ، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال ، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، وإنكم عائدون إلى الكفر الذى كنتم فيه أو إلى العذاب .

وارتقب يوم نبطش البطشة العظمى ، إنا منتقمون منهم على أفعالهم ، وهل الدخان والبطشة مضتا على عهد رسول الله ﷺ ؟ فالبطشة ما أصاب المشركين يوم بدر ، والدخان ما أصابهم فى سنى القحط والجوع ، حتى إن أحدهم كان ينظر إلى السماء ، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ؟ أو أنهما سيأتيان ؟ فيكون الدخان علامة من علامات الساعة ، والبطشة الكبرى يوم القيامة ؟ والظاهر أن ذلك يوم القيامة ،وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضا. وبعد أن وضح الله عز وجل هذا فإنه يذكر من نبأ موسى وفرعون وقومهما مما يشير إلى وحدة موقف الكافرين فى كل عصر ، ويشير بالعاقبة رسوله ﷺ والمؤمنين ، فقال : لقد فتنا قبل هؤلاء الكافرين ، وفعلنا بهم فعل المختبر ليظهر منهم ما كان باطنا قوم فرعون وهم قبط مصر ، وجاءهم رسول كريم على الله وعلى عباده المؤمنين أو كريم فى نفسه ، حسيب ، نسيب ؛ لأن الله تعالى لم يبعث نبيا إلا من سراة قومه وكرامهم ، والمراد به موسى عليه السلام الذى لا يطلب منهم شيئا لنفسه ، إنما يدعوهم إلى الله ويطلب إليهم أن يؤدوا كل شىء لله ، وألا يستبقوا شيئا لا يؤدونه من ذوات أنفسهم يضنون به على الله ، إنها كلمات قصيرة تلك التى جاءهم بها رسولهم الكريم موسى عليه السلام ، فهو رسول من رب العالمين ، أمين على ما أرسلنى به ، لا أكتمكم منه شيئا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ فتح الله بالقرآن الكريم على البشرية كلها أبواب فضله ورحمته .

٢ ـ الإحياء والإماتة من مظاهر قدرة الله تعالى ووحدانيته .

٣ ـ أمام البشر فرصة فى هذه الدنيا لم تذهب بَعْد ، والعاقل هو الذى يستعد كل يوم بالإيمان والعمل الصالح .

وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ
بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا
رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ
تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ
كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾
فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ
نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ
﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا
نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ
خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ
﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾
مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
٤٩٧

معانى الكلمات :

تعلوا : تستكبروا .

عذت : استجرت بالله ولجأت إليه .

ترجمون : تقتلونى بالأحجار .

رهوا : ساكنا هادئا .

نعمة : تنعّم أو لذة.

فاكهين : ناعمين طيبى الأنفس

عالياً : جباراً

لاعبين : عابثين

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نتعلم كيفية الاعتبار بما أسلف من أحداث فى الكون والاقتداء بالصالحين .

٢ ـ أن نتعرف على سنة الله فى سلب النعم وإنزال النقم بمن كفر نعم الله .

٣ ـ أن نعلم هوان أهل الكفر والفسق على الله وعلى الكون كله .

المحتوى التربوى :

« يطلب موسى من قومه الاستجابة الكلية ، يقول **صاحب الظلال** : والأداء الكامل ، والاستسلام المطلق لله ، الذى هم عباده ، وما ينبغى للعباد أن يعلوا على الله ، **فهى دعوة الله** يحملها إليهم الرسول ، ومعه البرهان على أنه رسول الله إليهم ، البرهان القوى والسلطان المبين ، الذى تذعن له القلوب ، وهو يتحصن بربه ويعوذ به أن يسطوا عليه وأن يرجموه ، فإن استعصوا على الإيمان فهو يفاصلهم ويغتر لهم ويطلب إليهم أن يفاصلهم ويعتزلهم ، وذلك منتهى النصفة والعدل والمسالمة ، ولكن الطغيان قلما يقبل النصفة ، فهو يخشى الحق أن يظل طليقا ، يحاول أن يصل إلى الناس فى سلام وهدوء ، ومن ثم يحارب الحق بالبطش ولا يسالمه أبداً .

فمعنى المسالمة أن يزحف الحق ويستولى فى كل يوم على النفوس والقلوب ، ومن ثم يبطل الباطل ولا يعتزل الحق ولا يدعه يسلم أو يستريح ، ويختصر السياق هناك حلقات كثيرة من

القصة ليصل إلى قرب النهاية ، حين وصلت التجربة إلى نهايتها ، وأحس موسى أن القوم لن يؤمنوا له ، ولن يستجيبوا لدعوته ، ولن يسالموه أو يعتزلوه ، وبدا له إجرامهم أصيلا عميقا لا أمل فى تخليهم عنه ، عند ذلك لجأ إلى ربه وملاذه الأخير » .

وماذا يملك الرسول إلا أن يعود إلى ربه بالحصيلة التى جنتها يداه ؟ وألا ينقض أمره بين يديه ، ويدع له التصرف بما يريد ؟ وتلقى موسى الإجابة إقرارًا من ربه لما دمغ به القوم ، حقا إنهم مجرمون ، فسر بعبادى بنى إسرائيل فى الليل إنكم متبعون ، دبر الله أن تتقدموا ويتبعكم فرعون وجنوده فينجيكم ويغرقهم ، وقد أمر الله موسى ﵇ أن يمر هو وقومه وأن يدع البحر وراءه ساكنا على هيئة التى مر هو وقومه فيها ، لإغراء فرعون وجنده باتباعهم ؛ ليتم قدر الله بهم كما أراده : ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ فهكذا ينفذ قدر الله من خلال الأسباب الظاهرة ، والأسباب ذاتها طرف من هذا القدر المحتوم .

يقول صاحب الظلال « ويختصر السياق حكاية مشهد الغرق أو عرضه ، اكتفاء بالكلمة النافذة التى لابد أن تكون ، ويمضى من هذا المشهد المضمر إلى التعقيب عليه ، تعقيبا يشى بهوان فرعون الطاغية المتعالى وملئه الممالئ له على الظلم والطغيان ، هوانه وهوانهم على الله ، وعلى هذا الوجود الذى كان يشمخ فيه بأنفه ، فيطأطئ له الملأ المفتونون به ، وهو أضأل وأزهد من أن يحس به الوجود ، وهو يسلب النعمة فلا يمنعها من الزوال ، ولا يرثى له أحد على سوء المآل ، ويبدأ المشهد يصور النعيم الذى كانوا فيه يرفلون جنات . . وعيون .. وزروع .. ومكان مرموق، ينالون فيه من الاحترام والتكريم، ونعمة يلتذونها ويطعمونها ويعيشون فيها مسرورين محبورين، ثم ينزع هذا كله منهم أو ينزعون منه ، ويرثه قوم آخرون » .

ثم ماذا ؟ ثم ذهب هؤلاء الطغاة الذين كانوا ملء الأعين والنفوس فى هذه الأرض : ذهبوا فلم يأس على ذهابهم أحد ، ولم تشعر بهم سماء ولا أرض ، ولم ينظروا أو يؤجلوا عندما حل الميعاد ، ولو أحس هؤلاء الجبارون فى الأرض ما فى هذه الكلمات من إيحاء لأدركوا هوانهم على الله وعلى هذا الوجود كله ، ولأدركوا أنهم يعيشون فى الكون منبوذين منه مقطوعين عنه ، ولا تربطهم به آصرة وقد قطعت آصرة الإيمان .

قال الفخر الرازى : « اعلم أنه تعالى لما بين كيفية إهلاك فرعون وقومه بين كيفية إحسانه إلى موسى وقومه ، واعلم أن دفع الضرر مقدم على إيصال النفع فبدأ تعالى ببيان دفع الضرر عنهم ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ قتل الأبناء واستخدام النساء والإتعاب فى الأعمال الشاقة » .

يقول صاحب الظلال : « ويذكر هنا نجاة بنى إسرائيل من العذاب المهين فى مقابل الهوان الذى انتهى إليه المتجبرون المتعالون المسرفون فى التجبر والتعالى ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ ثم يذكر اختيار الله لبنى إسرائيل ـ على علم بحقيقتهم كلها ، خيرها وشرها ،

اختيارهم على العالمين فى زمانهم بطبيعة الحال ، لما يعلمه الله أنهم أفضل أهل زمانهم وأحقهم بالاختيار والاستخلاف ، على كل ما قصه عنهم بعد ذلك من تلكؤ ومن انحراف والتواء ، مما يشير إلى أن اختيار الله ونصره قد يكون لأفضل أهل زمانهم ، ولو لم يكونوا قد بلغوا مستوى الإيمان العالى ، إذا كانت فيهم قيادة تتجه بهم إلى الله على هدى وعلى بصيرة واستقامة ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴾ فتعرضوا للاختيار بهذه الآيات التى آتاهم الله إياها للابتلاء ، حتى إذا تم امتحانهم وانقضت فترة استخلافهم ، أخذهم الله بانحرافهم والتوائهم ، وبنتيجة اختبارهم وابتلائهم » .

جاءت هذه الآيات كنموذج لفعل الله بالمكذبين ، وفعل الله برسله والمؤمنين ، وكمثل على أن دأب الكافرين فى كل عصر : التكذيب والرفض والشك ، مهما كثرت الآيات وقامت الحجج ، وفى ذلك تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ، وبشارة لهم وتعليم لهم بواقع الحال ، وبعد هذه الجولة عن السابقين يعود الكلام عن المشركين الذين يواجهون هذه الدعوة وتواجههم ، فهؤلاء الأدنون الهابطون بعقولهم إلى أسوأ المستويات ما يستحون ولا يخجلون ، فيقولون : إن هى إلا موتتنا الأولى منكرين للبعث والجزاء ، ليواصلوا كفرهم وفسقهم ، فلذا قالوا : وما نحن بمبعوثين أحياء من قبورنا ، واحتجوا بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا ، وهى حجة فاسدة فإن المعاد إنما هو يوم القيامة ، ثم قال تعالى مهدداً لهم ومتوعداً لهم بأمنه الذى لا يرد ، كما حل بأشباههم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع وهم (سبأ) حيث أهلكهم الله وخرب بلادهم وشردهم فى البلاد .

فهم ليسوا بخير منهم بأى حال لا فى المال ولا فى الرجال فكما أهلكناهم نهلك هؤلاء ، وأهلكنا الأولين لأنهم كانوا مجرمين وهؤلاء مجرمون أيضا فهم مستوجبون للهلاك ، وبعد هذا الإنذار والتحذير يقيم الله عليهم الحجة فى هذا الشأن بأنه ما خلق السموات والأرض لعبا ولا لهوا وأنه ما خلقها إلا بالحق، ولكن أكثرهم لا يعلم أنه خلق لذلك ومن ثم لا يؤمن بالبعث ، ولو أنه علم تنزيه الله عن العبث ، وعلم أن الله خالق السموات والأرض بالحق ، لأيقن بالبعث والحساب ولكنه لا يعلم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ جزاء المتكبرين العذاب فى الدنيا والآخرة مع الذل والهوان .

٢ ـ النعمة لا تدوم إلا بشكر المنعم تعالى عليها .

٣ ـ التدبر فى خلق السموات والأرض وما فيهما من مخلوقات الله تعالى ودلائل قدرته يهدى إلى الإيمان بالبعث بعد الموت .

سورة الدخان

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى
عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ
إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾
طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ
الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ
صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ
أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ
﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ
﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾
كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ
فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ
إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا
مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

سورة الجاثية

٤٩٨

معانى الكلمات :

يوم الفصل : يوم القيامة .

ميقاتهم : وقت موعدهم .

مولى : قريب أو صديق .

كالمهل : مثل النحاس المذاب الذى تناهى حره .

تمترون : تشكون .

سندس : حرير رقيق .

إستبرق : حرير سميك غليظ .

يدعون : يطلبون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على يوم القيامة والحساب ، وما فيه من عذاب للمكذبين .

٢ ـ أن نتعرف على صورة المتقين وهم فى جنات ربهم مطمئنون فى مجالسهم .

٣ ـ أن نعلم فضل التقوى وكرامة أهلها .

المحتوى التربوى :

يجىء السياق بعد توجيه النظر إلى الحكمة والقصد فى خلق السموات والأرض ، بالقول عن يوم الفصل ، فالحكمة تقتضى أن يكون هناك يوم فصل فيه بين الخلائق ، ويحكم فيه بين الهدى والضلال ، ويكرم فيه الخير ويهان فيه الشر ، ويتجرد الناس من كل سند لهم فى الأرض ، ومن كل قربى وآصرة ، ويعودون إلى خالقهم فرادى كما خلقهم ، يتلقون جزاء ما عملت أيديهم ، ولا ينصرهم أحد ، ولا يرحمهم أحد ، إلا من ينال رحمة ربه العزيز القادر الرحيم العطوف ، الذى خرجوا من يده ـ سبحانه ـ ليعملوا ، وعادوا إلى يده ـ سبحانه ـ ليتسلموا منه الجزاء ، وما بين خروجهم ورجوعهم إنما هو فرصة للعمل ومجال للابتلاء .

هكذا تقتضى الحكمة الظاهرة فى تصميم هذا الكون،وفى خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق ، وفى التقدير الواضح والقصد الناطق فى كل شىء وفى هذا الوجود .

وبعد تقرير هذا المبدأ يعرض عليهم مشهدًا من مشاهد يوم الفصل ، وما ينتهى إليه العصاة والطائعون من عذاب ومن نعيم ، مشهداً عنيفا يبدأ بعرض لشجرة الزقوم ، بعد تقرير أنها طعام الآثم فى قوله وفعله واعتقاده وهو الكافر وليس له طعام غيرها ، عرض مفزع مرعب مخيف ، إن هذا الطعام مثل دردى الزيت المغلى ـ وهو المهل ـ يغلى فى البطون كغلى الحميم ، وهناك هذا الأثيم هذا المتعالى على ربه ، وعلى الرسول الأمين ، وهذا هو الأمر العالى يصدر إلى الزبانية ليأخذوه فى عنف يليق بمقامه ﴿ٱلْكَرِيمُ﴾ .

خذوه أخذا ، واعتلوه عتلا ، وشدوه فى إهانة وجفوة فلا كرامة ولا هوادة ، وهناك صبوا فوق رأسه من ذلك الحميم المغلى الذى يشوى ويكوى ،و مع الشد والجذب والدفع والعتل والكى والشى .. التأنيب والترذيل : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ وهو جزاء العزيز الكريم فى غير ما عزة ولا كرامة ، فقد كان ذلك على الله وعلى المرسلين ، وقد كنتم تشكون فى هذا اليوم كما كنتم تسخرون وتستهزئون .

وبينما الأخذ والعتل والصب والكى ، والتأنيب والخزى ، فى جانب من جوانب الساحة ... البصر ـ بعين الخيال ـ إلى الجانب الآخر ، فإذا المتقون الذين كانوا يخشون هذا اليوم ويخافون أذاهم ﴿فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ ولا خوف فيه ولا نزع، ولا شد فيه ولا جذب، ولا عتل فيه ولا وصب ، بل هم منعمون رافلون ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ يلبسون من سندس ـ وهو الحريرالرقيق ـ ومن إستبرق ـ وهو الحرير السميك ـ ويجلسون متقابلين فى مجالسهم يسمرون ، كل ذلك ومثله تزويجهم بحور عين ، يتم بهن النعيم ، وهم فى الجنة أصحاب الدار ، يطلبون ما يشاؤون ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ ، لا يتوقعون نهاية لهذا النعيم ، فلا موت هناك وقد ذاقوا الموتة الأولى ، وغيرها لا يذوقون ، ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ تفضلا منه سبحانه ، فالنجاة من العذاب لا تكون إلا بفضله ورحمته:﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وأى فوز عظيم؟ !

قال الإمام الرازى « قال أصحابنا كل من اتقى الشرك فقد صدق عليه اسم لمتقى فوجب أن يدخل الفاسق فى هذا الوعد ، واعلم أنه تعالى ذكر من أسباب تنعمهم أربعة أشياء :

أولها : مساكنهم فقال : ﴿فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ واعلم أن المسكن إنما يطيب بشرطين : أحدهما : أن يكون آمنا عن جميع ما يخاف ويحذر ... والشرط الثانى لطيب المكان : أن يكون قد حصل فيه أسباب النزهة ، وهى الجنات والعيون ، فلما ذكر تعالى هذين الشرطين فى مساكن أهل الجنة فقد وصفهما بما لا يقبل الزيادة .

والقسم الثانى فى تنعماتهم : الملبوسات ، فقال : ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ وقيل : السندس . ما رق من الديباج ، والإستبرق : ما غلظ منه .

والقسم الثالث : فهو جلوسهم على صفة التقابل، والغرض منه: استئناس البعض بالبعض ، فإن قالوا : الجلوس على هذا الوجه موحشَ ، لأنه يكون كل واحد منهم مطلعا على ما يفعله الآخر ، وأيضا فالذى يقل ثوابه إذا اطلع على حال من يكثر ثوابه يتنغص عيشه ، قلنا : أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا .

والقسم الرابع : أزواجهم ، ففقال : ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ .. وعين الحوراء إذا اشتد بياض بياضها واشتد سواد سوادها ، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون حور عينها بياضا فى لون الجسد »

والنوع الخامس : من تنعمات أهل الجنة: المأكول، فقال: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ قالوا : إذ إنهم يأكلون جميع أنواع الفاكهة لأجل أنهم آمنون من التخم والأمراض » .

ثم إنه تعالى وصف القرآن فى أول هذه السورة بكونه كتابا مبينا كثير البيان والفائدة ، وذكر فى خاتمتها ما يؤكد ذلك فقال : إن ذلك الكتاب المبين الكثير الفائدة إنما يسرناه بلسانك ، وأنزلناه عربيا بلغتك ، لعلهم يتذكرون ، والضمير فى قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ عائد على أقوام مخصوصين وهم المؤمنون .

يقول صاحب الظلال:« تختم السورة بالتذكير بنعمة الرسالة والتخويف من عاقبة التكذيب: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ وهو ختام يلخص جو السورة وظلها ، ويتناسق مع بدئها وخط سيرها ، فقد بدأت بذكر الكتاب وتنزيله للإنذار والتذكير ، وورد فى سياقها ما ينتظر المكذبين : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ فجاء هذا الختام يذكرهم بنعمة الله فى تيسير هذا القرآن على لسان الرسول العربى الذى يفهمونه ويدركون معانيه ، ويخوفهم العاقبة والمصير ، فى تعبير ملفوف ، ولكنه مخيف : ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا موت فى الآخرة ، وإنما خلود وبقاء دائم فى الجنة أو فى النار .

٢ ـ من نعم الله على عباده أنه نزل القرآن الكريم للإنذار والتذكير ، وللعظة والاعتبار .

٣ ـ عقاب الكافرين والمكذبين عدل من الله تعالى ، وثواب المؤمنين فضل من الله ورحمة ورضوان .